الأسطورة

1- تعريف الأسطورة.
2- خصائص الأسطورة.
3- الزمن في الأسطورة.
4- الأسطورة والخرافة والحكاية.

ترتبط الأسطورة في أذهان الناس بكل ما هو خرافي أو وهم أو حدث خارق وغير معقول، حتى في القرآن الكريم ورد ذكر الأساطير (بصيغة الجمع) بمعان قريبة من هذا. لكن الاهتمام بدراسة الميثولوجيا في القرن العشرين أعطى للموضوع أبعادا أخرى وكشف عن حضور الأسطورة وتأثيرها في الأنظمة الثقافية للمجتمعات. ومثلت في فترات من عمر البشرية الأداة المثلى للتعبير، ولاستقاء المعرفة، والتجربة البشرية، ومثلت أرقى شكل من أشكال التعبير الإنساني ولفترات طويلة من التاريخ البشري، والتراث البشري كله زاخر برواية أساطير الخلق والتأسيس، خلق الكون، والحياة، والطبيعة ومكوناتها، وأرخت الأسطورة لأحداث كونية عظمى، ووجد فيها الإنسان ولازال (وإن تغير الشكل وطريقة التناول) المرجع المفسر لكثير مما حيره من مظاهر الكون والطبيعة، وأعطته الأداة التعبيرية الأولى وبلا منازع، في مسيرته البشرية الضاربة في عمق التاريخ. فهي "كما يقول مالينوفسكي تزوده بصكوك للنشاط الاجتماعي، أو كما يقول ليفي شتراوس بنماذج منطقية تكون قادرة على قهر التناقضات التي يواجهها في الواقع"[1]

وفي مراحل متأخرة طغت التفسيرات الدينية والعلمية على المعرفة الإنسانية، فانسحبت الأسطورة من الريادة، لكنها لم تمت ولن تموت، وإنما انضوت في زوايا مظلمة تنتظر الظرف المُواتي للبروز، أو التجلي في أشكال قصصية أو احداث تفسيرية أخرى، وخاصة في زمن الأزمات.

تعريف الأسطورة:

ورد في معجم الاثنولوجيا والأنثروبولوجيا: " الأساطير هي قصص تأسيسية يتناقلها أعضاء مجتمع من جيل إلى جيل منذ أقدم العصور"[2]، وحسب التعريف الأسطورة في الأنثروبولوجيا مرتبطة

بوظيفة التأسيس، وبطبيعة السرد والرواية، ويضيف مارسيا إلياد طبيعة أبطال الأسطورة بأنهم كائنات عليا، خارقة، فوق بشرية، وبأنها ترتبط بوقائع تاريخية حقيقية، اكتسبت صفة القداسة. يقول:

"الأسطورة تروي تاريخا مقدسا، تروي حدثا جرى في الزمن البدئي، الزمن الخيالي، هو زمن البدايات. بعبارة أخرى تحكي لنا الأسطورة كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود بفضل مآثر اجترحتها الكائنات العليا، لا فرق بين أن تكون هذه الحقيقة كلية كالكون مثلا، أو جزئية كأن تكون جزيرة أو نوعا من نبات أو مسلكا يسلكه الإنسان أو مؤسسة. إذن هي دائما سرد لحكاية "خلق": تحكي لنا كيف كان إنتاج شيء بدأ وجوده، لا تتحدث الأسطورة إلا عما قد حدث فعلا، عما قد ظهر في امتلائه، أما أشخاص الأساطير فكائنات عليا، نعرفهم بما قد صنعوه في الأزمنة القوية، ذات التأثير الفعال، وهي أزمنة البدايات"[3].

ويعطي فراس السواح للأسطورة أبعادا اجتماعية وثقافية، حيث يقول: "الأسطورة، حكاية مقدسة تقليدية. بمعنى أنها تنتقل من جيل إلى جيل، بالرواية الشفهية. مما يجعلها ذاكرة الجماعة، التي تحفظ قيمها وعاداتها وطقوسها وحكمتها، وتنقلها للأجيال المتعاقبة، وتكسبها القوة المسيطرة على النفوس. فهي الأداة الأقوى في التثقيف والتطبيع والقناة التي ترسخ والقناة التي ترسخ من خلالها ثقافة ما وجودها واستمرارها عبر الأجيال".[4]

ويربط كلود ليفي ستروس الأسطورة باللغة والكلام فيقول: "الأسطورة كلام، لكنها كلام يشتغل على صعيد شديد الارتفاع، بحيث يتوصل المعنى فيه إلى الإقلاع – إذا جاز التعبير – عن الأساس اللغوي الذي كان قد بدأ يتدرج في السير عليه"[5].

خصائص الأسطورة:

1- الأسطورة قصة تتميز بميزات النص السردي تروي أحداثا متسلسلة بلغة فيها من الخيال والشاعرية الكثير ولكنها كما يقول ليفي ستروس: "تقع الأسطورة في سلم الصيغ التعبيرية اللغوية على طرفي نقيض من الشعر" حيث أن الشعر يصعب ترجمته، وينالله عند الترجمة الكثير من التشويه والتحريف على خلاف الأسطورة التي تظل أسطورة مهما ترجمت أو انتقلت في المكان أو الزمان أو بين الثقافات. "إن كنه الأسطورة لا يكمن لا في أسلوب صياغتها ولا في نمط سردها ولا في تركيبها النحوي، بل في التاريخ الذي ترويه"[6]

2- الأسطورة نص تأسيسي عابر للزمن يتم استحضاره بقدسية في طقوسية حضور لحظة البدء، ويعتبر كلود ليفي ستروس الزمن الأسطوري ذا طبيعة مزدوجة باعتباره زمنا مرتجعا ولا

رجعة له في آن واحد، فهو تعاقبي وتزامني معا[7] يتميز بجديته وصرامته مما يعطيه هالة من التبجيل والتقديس.

3- الأسطورة ليست فنا أو عملا إبداعيا بقدر ما هي معرفة، تفسر أحداثا عظيمة تتصل بالخلق والنشأة الأولى أصبغ عليها الإنسان معاني منذ أقدم العصور.

4- الأسطورة قصة مجهولة المصدر والمؤلف، فهي نتاج جمعي تتناقلها الأجيال.

5- أبطال الأسطورة آلهة أو أنصاف أو أشباه آلهة، ويكون حضور الإنسان فيها ثانويا.

6- تكون الأسطورة في تطابق دلالي وشكلي مع مجمل الأساطير المروية لدى شعب من الشعوب.[8]

الزمن في الأسطورة:

يلعب الزمن دورا مهما في الأساطير ويظهر من خلال الاستهلال أو ابتداء السرد بعبارات تحمل مدلولات زمنية مثل في البدء أو كان ما كان، لتفصل الحدث عن الحاضر وتعود بالنص إلى أزمنة أخرى، تجعل الحدث عصيا عن التفكير المنطقي العادي، فكأن الزمن هنا يؤدي وظيفة فصل أحداث الأسطورة عن الواقع الآني والعقلي والمنطقي المتعارف عليه.

ثم إن الأسطورة لا تعطي تفسيرا للماضي فقط، بل تتعداه للحاضر والمستقبل كما يرى كلود ليفي شتراوس "إن الأسطورة عند ليفي شتراوس تشير دائما إلى وقائع، يزعم أنها حدثت منذ زمن بعيد، لكن ما يعطي الأسطورة قيمتها العلمية هو أن النمط الخاص الذي تصفه غير ذي زمن محدد، إنها تفسر الماضي والحاضر وكذلك المستقبل"[9].

فإذا كانت اللغة تنتمي إلى حقل زماني تزامني والكلام إلى حقل زماني تتابعي فإن "الأسطورة تتحدد أيضا بستام زمني يجمع خصائص الزمنين الآخرين. فالأسطورة تتعلق دائما بأحداث مضت [....] لكن القيمة الداخلية التي تعزى للأسطورة إنما تنشأ عن أن هذه الأحداث التي يفترض بها أنها حدثت في لحظة معينة من الزمان تُشكل في الوقت نفسه بنية دائمة. وهذه البنية تتعلق بالماضي وبالحاضر وبالمستقبل"[10]، وبالتالي يمكن تحليل الأسطورة ضمن بنية مزدوجة؛ تاريخية وخارج إطار التاريخ، فالأسطورة تنتمي إلى حقل الكلام (الحكي) وإلى حقل اللغة. ويشبهها شتراوس في ذلك بالمقطوعة الموسيقية التي يمكن قراءتها من الشمال إلى اليمين ومن الأعلى إلى الأسفل.

الأسطورة والخرافة والحكاية:

كثيرا ما تتداخل المصطلحات الثلاث فيما بينها في الاستعمال، فيقال مثلا حكاية خرافية، أو حكاية أسطورية، أو أسطورة خرافية، وذلك ناتج عن التطور الطبيعي للمصطلح، في اللغات المختلفة والترجمات، ثم إن خصائص السرد والرواية والنقل للأحداث من جيل إلى جيل، كلها تمثل سمات مشتركة بين هذه الأشكال التعبيرية، وهي في الأساس خصائص الحكاية بأنواعها، لكن الذي يميز بينها جميعا، بصفة خاصة، هو الموضوع، موضوع النص المتداول شفاهيا أو كتابيا، بحيث لكل شكل من هذه الأشكال خصائصه التي يضفيها عليه موضوعه. لقد تعرفنا على الأسطورة، أما الحكاية يمكن سحب خصائصها على كل نص سردي يكون الحكي فيه أساسيا، وقد ميز الباحثون الحكايات بتمييز أنواعها؛ فذكروا مثلا: الحكايات الخرافية، حكايات الحيوان، حكايات الجن، الحكايات العجيبة.. إلخ. ويبقى أن نعرف بالخرافة لعلاقتها بالأسطورة، فالكثير من الخرافات المتداولة، كانت في أصلها أساطير، وقلبتها الديانات التوحيدية إلى خرافات، وحولت أبطالها الذين كانوا في الأصل آلهة أو أنصاف آلهة إلى ملوك وأبطال بشر خارقين، أو حيوانات وطيور، لتتماشى الأسطورة مع عقيدة التوحيد، وتبقى محافظة على وجودها، ووظيفتها في المجتمع. أو أنها كانت أساطير في مجتمعات أخرى، وانتقلت في صورة حكايات، فانتشرت مثلا خرافات أو حكايات تأسيسية للمكان، خرافات خلق لنباتات، وغيرها من الأمثلة، رغم أن التأسيس والتكوين من خصائص الأسطورة. والخرافة معروفة في المجتمع الجزائري، "ويسمي المجتمع التقليدي في الجزائر الحكاية الخرافية باللهجة العربية الدارجة (حجّاية) و(خرّافة) و(خريفيّة) وبالأمازيغية (أماشهوس)."[11]

وقد أورد الأستاذ عبد الحميد بورايو نصا لكلود ليفي ستروس حول العلاقة بين الأسطورة والحكاية الخرافية والتي أسماها ليفي ستروس الحكاية الشعبية وقد اعترض فلاديمير بروب على التسمية، باعتبار أنه في مؤلفه تحدث عن الحكاية الخرافية وليس الشعبية، وسنورد النص كما هو رغم طوله، لكنه مفيد وموضح للموضوع، حيث يقول:

"فالحكايات الشعبية في مجتمع ما أساطير في مجتمع آخر، والعكس صحيح. وهذا هو السبب الأول لإدراك التصنيفات العشوائية. أضافة لذلك، فإن المتخصص في علم الأساطير، يلاحظ عادة أن نفس الحكايات، ونفس الشخصيات ونفس الموتيفات تظهر ثانية في حكايات وأساطير مجتمع ما في صيغة شبيهة أو معدلة. وعلاوة على ذلك، فإن المرء في محاولته معرفة السلسلة الكاملة لتحولات الموضوع (Thème) الأسطوري، نادرا ما يحصر نفسه في الأساطير

(المقيدة إلى هذا الحد من قبل القبائل) فبعض هذه التحولات يجب أن تمتد إلى الحكايات، رغم أنه من الممكن أن نستنتج وجودها من الأساطير الحقة.

لا شك أن كل المجتمعات تقريبا تعتبر الحكايات والأساطير كجنسين يختلف أحدهما عن الآخر، وأن انتظام هذا التميز له سببه. وفي اعتقادي أن سببا كهذا موجود ويمكن رده لاختلاف في الدرجة ذي شقين: فالحكايات مبنية على تقابلات أضعف من التقابلات الموجودة في الأساطير، وهي أيضا، ليست كزمولوجية ولا ميتافيزيقية أو طبيعية ولكنها في أكثر الأحايين محلية واجتماعية وأخلاقية. إضافة على ذلك، فالحكاية الشعبية تحويل ضعيف لموضوع (Thème) يكون تحقيقه الأقوى خاصية للأسطورة، ولهذا السبب فهي، أي الحكاية، تخضع خضوعا صارما لدرجة أقل من خضوع الأسطورة للاعتبارات الثلاثية المتمثلة في الترابط المنطقي والمعتقد الديني والضغط الاجتماعي. والحكاية تسمح بإمكانات التلاعب. ومقارنة بالأسطورة، فإن تغيراتها الأساسية لها حرية أكبر وتكتسب بمرور الوقت صفة عشوائية معينة. ولكن إذا كانت الحكاية تعمل بتقابلات أقل يصبح التعرف على هذه التقابلات من الصعوبة بمكان. وتزداد هذه الصعوبة لأن هذه التقابلات، عندما تصبح ضعيفة جدا، تتميز بعدم ثبات يجعلها قريبة من الإبداع الأدبي."[12]

[1] - كلود ليفي ستروس: الأسطورة والمعنى، ترجمة شاكر عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1986، ص 06 (من مقدمة المترجم)

[2] - بيار بونت وميشال إيزار: معجم الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، مجد، بيروت،لبنان، 2006، ص68.

[3] - مارسيا إلياد: مظاهر الأسطورة، ترجمة: نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، 1991، ص 10.

[4] - فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، ط 11 ص 19

[5] - كلود ليفي ستروس: الإناسة البنائية، ترجمة حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي،لبنان- المغرب،1995، ص: 230

[6] - المرجع نفسه، ص 230

[7] - المرجع نفسه، ص 231

[8] - بيار بونت وميشال إيزار،م.س، ص 68

[9] - كلود ليفي ستروس: الأسطورة والمعنى، م.س، ص 05

[10] - كلود ليفي ستروس : الإناسة البنيانية، م.س، ص 228-229

[11] - بورايو عبد الحميد: الأدب الشعبي الجزائري، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص 141

[12] - في: المرجع السابق، ص 146-147